

## مقدمة

عندما قامت ثورة يوليو كنت - مثل غيرى - أمضى عطلة الصيف التى تلت نجاحنا فى الصف الأول الثانوى (النظام القديم، حيث كانت التعليم الثانوى خمس سنوات)، ولا أستطيع أن أصف للقارئ مشاعر الفرح والغبطة التى ملأت كل جوانحي، ذلك أن الله عز وجل كان قد أتاح لى فرصة المتابعة المستمرة لفيضان الحركة الوطنية وخاصة منذ بداية حكومة الوفد فى ١٩٥٠، وهذا الكم المذهل من الصحف والمجلات متباينة الاتجاهات التى كانت تصدر فى عهد الوفد مما لم أر له مثيلا حتى اليوم، وخاصة فى مدى حرية التعبير التى كانت متاحة، وكان على رأس هذه الصحف صحف مصر الفتاة التى ما أن تصدر صحيفة، حتى تظهر أخرى بدلا منها، ثم يحكم مجلس الدولة بعودة الصحيفة المصادرة، فتتكاثر صحف مصر الفتاة، بكل ما كانت تحمله من موضوعات ساخنة وأسلوب حاد فى النقد، وكانت هكذا أيضا مجلة روز اليوسف.

وازداد الموقف اشتعالا بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى أكتوبر ١٩٥١، وما ترتب عليها من حركة مقاومة للاحتلال الإنجليزي فى منطقة قناة السويس، لتبلغ المأساة ذروتها فى معركة الشرطة بالإسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢، ثم حريق القاهرة فى ٢٦ يوليو، وبعد هذا يجثم على صدر البلاد عهد كئيب زاد الأمر سوءا، وإن عجل بقيام الثورة. كل هذه الأحداث وغيرها جعلت القضية الوطنية محور حياتنا، مع صغر سننا، وجعلت الهم العام بؤرة التفكير، وصار الحلم الكبير لا يكف عن مداعبة عقولنا وقلوبنا بأن نتخلص مصر من كابوس الاحتلال ومراكز الفساد الداخلى، وتصبح قوة تستحقها بحكم مكانتها.

وعندما قامت الثورة كانت آذاننا لا تكاد تفارق الراديو إلا قليلا، وكانت المارشات العسكرية تدق على قلوبنا بالفرح والسعادة، حيث يصدر بين حين وآخر من القرارات ما كان يجسد العديد من الأمنيات التى تطالما حلمنا بها، وتتدفق الأغاني والأناشيد فنزداد فرحا وكأنا نريد أن نظير فى السماء سرورا وبهجة. وحتى عندما اندلعت أزمة مارس ١٩٥٤، كانت مشاعرى مع ضباط الثورة وسعدت عندما تقرر أن تبقى الثورة.

لكن الحق أقول، أننى بدأت أشعر ببعض ضيق عقب ما كان يتم من اعتقالات ومحاكمات للإخوان المسلمين، فقد كنت أعرف بعض الطلاب من زملاء والمعارف

يعتقلون ويعذبون، وهذه المحاكمات المحزنة التي كانت تجرى فى محكمة يرأسها ضابط يكاد أن يكون مختلا هو جمال سالم والذي وصلت به الجراة أن يطلب من واحد ممن حوكموا بأن يقرأ سورة الفاتحة بالمقلوب !!

لكن الحال تغير عند تأميم قناة السويس .. عاد حب الثورة إلى قلبى، والتحمس لها والإيمان بزعيمها، حتى لقد هرعت إلى ميدان باب الحديد (رمسيس) حال عودة الزعيم من الإسكندرية لكى أحظى برؤيته، وما زالت صورته ماثلة أمام عيني حتى الآن وهو محمول على أكتاف الجماهير الحاشدة، حيث لم يكن هناك موطنى لقدم وهو بالبيلة ذات اللون الرمادى.

وطوال الفترة وأنا عاشق للثورة ولزعيمها، وإن لم يخل الأمر من حين لآخر من بعض ضيق بسيط لهذا الموقف أو ذلك.

وحتى الآن، وأنا أكتب هذه المقدمة فى يناير ٢٠٠٣، ما زلت كلما رأيت صورة عبد الناصر على شاشة التلفاز أو سمعت خطبة له، أو نشيدا من أناشيد الثورة، غمرتني مشاعر كان هذا الرجل قد زرعها فينا وأججها، مشاعر نفتقدها الآن بقوة، مشاعر العزة والكرامة، وأنا لسنا نعالا فى أرجل القوى المهيمنة، حتى ولو جعلنا مصداقا للمثل المعروف: تجوع الحرة ولا تأكل بثديها.

وهكذا لم أكن من أى شريحة أو فئة أضيرت من جراء الثورة كى أحمل لها حقا أسود، وفى الوقت نفسه، لم أنل شيئا من مغانمها إلا ما هو فى حدود المغنم القومية العامة.

ومن هنا فقد أقدمت على كتابة هذا الكتاب وأنا أشعر بقدر من الرضا أن لست من حملة مشاعر تضغط على الكاتب فتوجهه هذا الاتجاه أو ذلك.

وكانت عملية اختيار المراجع التى يمكن الرجوع مشكلة حقا ...

فقد تراوح عدد غير قليل منها بين أقصى اليمين، وأقصى اليسار، كتبها نفر لا يرون من الأمور إلا أنها إما أن تكون سوداء أو بيضاء، فنفر يحمل الثورة كل ما عانت مصر منه أو ما تزال تعاني، ونفر آخر يبرئها تماما ويعلو بزعيمها إلى سماء لا يطار لها على جناح ولا يسعى على قدم.

من هنا حاولت أن أستبعد بعض الكتابات، فلم أستد إلى كتاب - مثلا - كتبه واحد أعلم أنه من الإخوان المسلمين، ولا إلى بعض الكتاب الذين يمكن إدخالهم فى زمرة "العاشقين إلى حد الجنون".

ومع ذلك فلا أخفى أن نتيجة قراءاتي قادنتني إلى نتائج وأحكام صدمتني حقا وجعلتني أعيد بعض حساباتي فأشعر بأن البعض إذا كان يردد، ردا على نقد الثورة بتورطها في معارك كثيرة خارجية، بأن قضية التحرير لا تتجزأ، فلا بد أن يتسق مع نفس المنطق، وبالتالي فيؤكد أن حرية المواطن لا تقل شأنًا أبداً عن حرية الأوطان، وأن الانتصارات الكبرى لثورة يوليو لم تسر بنا إلى ما كنا نرجو لأننا افتقدنا هذا المنطق، بل ويصل الأمر بالبعض، عندما يتطرق الحديث إليها، إلى التهوين من شأنها، مع أنها، في رأيي الخاص، هي جوهر القضية، أو بمعنى أصح فإن حرية المواطن وحرية الوطن هما وجهان لعملة واحدة، ولنتذكر أن من بين أسباب انهيار الاتحاد السوفيتي، رغم ما حققه من إنجازات مذهلة وصلت به إلى الكواكب الأخرى، كان افتقاد مواطنه لحرية الإرادة وحرية التعبير.. قدرته على أن يقول لا، وهو آمن أنه لن يضار في عمله أو في لقمة عيشه أو في أهله.

وعندما تتور الحياة في المجتمع حول شخص الزعيم، تتحول عملية التربية إلى دعاية وتلقين، ويشيع نهج الغرض والإملاء، فتفقد العملية التربوية مضمونها الحقيقي، ولا زلت أتذكر طوابير الصباح في جميع المدارس، يومياً، والتلاميذ يرددون معا وبصوت واحد: ناصر، كلنا بنحبك، ناصر وحنفضل جنبك، ناصر.. فمهما كنا نحبه بالفعل، لكننا نحب مصر أكثر وجموع الأمة أكثر، فلم لم تدر مثل تلك الأناشيد حول مصر الوطن، لا مصر الزعيم؟

لا أريد أن أصادر على حق القارئ في الاطلاع أولاً على الحثيات المتمثلة في جملة فصول الكتاب ليخرج بالحكم الذي يهتدى إليه..

ولا بد لي وأنا أختتم هذه المقدمة من أن أشير إلى مسألة تتصل بالمادة العلمية التي بُنى منها الكتاب، فالكثرة الغالبة منها اعتمدت فيها على مكتبتي الخاصة والحمد لله، لكنني كنت راغبا في الاطلاع على كم كبير من الصحف التي كانت تصدر خلال الفترة، ولم تكن ظروفى تسمح لي بالاختلاف إلى مصادر لها للاطلاع عليها، وهذا ما جعلني أتوقف بعض الوقت عن الشروع في تنفيذ كتابة الكتاب.

ثم تذكرت في الوقت نفسه مشكلة نعاني منها بالنسبة لطلبة الدبلوم الخاص، تخصص تاريخ التربية، فقد جرت العادة على تكليفهم ببعض الموضوعات التي يختارون من بينها لعمل بحث خاص بأعمال السنة، ومع الأسف الشديد كنت ألاحظ الهبوط التدريجي في مستوى الطلاب، حتى وصل الأمر بي إلى قناعة بأن القيام ببحث بالنسبة إليهم قد أصبح عملية شكلية لا جدوى منها.

هنا بدرت لى فكرة، فلم لا أكلفهم بالمرور بعملية تدريب على كيفية جمع المادة التاريخية وتصنيفها وتحليلها ونقدھا، وتكون المادة المختارة هذه المرة خاصة بفترة ثورة يوليو؟

راقت الفكرة لى، وشرعت أشرح للطلاب عناصر المادة المطلوب جمعها، وخاصة من الصحف، حيث الخبر والمقال والتحقيق الصحفى والفرق بين كل منها وأنا نريد المقالات، أما الأخبار والأحداث فلا بد فيها من أن نعتد على المصادر الرسمية من تقارير وقوانين ولوائح وقرارات.

وعندما تلقيت ما جمعه الطلاب، إذا بالكلم الأكبر منها إلى درجة لا أبالغ أن أقول أنها لا تقل عن ٩٠% كان مصيره سلة المهملات، لأنها فى كثير من الأحيان تعلقت بتحقيقات صحفية وأخبار، على الرغم من التوضيحات التى قمت بها ! حتى المقالات، كان معظمها ذا تصوير شئ من الصعب قراءته إلا بالكاد.

وبالنسبة للوثائق الرسمية، وجدت أن كثرة منهم قد أتت لى - مثلا - بقرارات وزارية تتعلق بتسمية مدارس، أو الاستيلاء على أرض لإقامة مدرسة، أو الموافقة على سفر إلى الخارج، وما شابه هذه المسائل التى لم تكن تعينى كثيرا، مما دل على ضعف قدرتهم على التعرف على ما يشكل "حدثا" تاريخيا تعليميا.

على أية حال، فلا بد أن أوجه شكرى إلى هذه القلة التى وجدت فى بعض ما جمعت من مادة تاريخية، بعض ما ساعدنى بعض الشئ. والله ولى التوفيق..

مصر الجديدة فى ٢٨ يناير ٢٠٠٣